في الأدب الإنجليزي

شارلس مورجان

ومناحي التطور في القصة الحديثة

بقلم محمد أمين حسونه

— ١ —

شارلس مورجان

إن ظهور رواية شارلس مورجان «صورة في مرآة» ونفاد طبعتها في بضعة أيام، من شأنه أن يوجه أنظارنا إلى كاتب قصصي برز فجأة من بين المؤلفين المصريين، وامتاز بعبقرية فذة تجلت في سطور هذه الرواية كما تجلت في روايته الأخرى « النافورة » The Fountain التي هتف لها النقدة ورفعوها الى الصف الأول بين الروايات التي ظهرت عقب الحرب الكبرى.

فبينما يحدثنا المؤلف عن هذا النوع الجديد من التصوف « حياة التأمل — Contemplative life » الذي يحيط بفصول روايته كهالة من القداسة، ويحلق بنا في الأجواء التي تخلد فيها أرواح أرسطو وأفلاطون وديكارت، إذ نراه في فصل آخر ينزل بنا إلى التحدث عن علاقة الأجساد بالشهوة، أي يعود بنا آدميين تحكمنا غريزة الجنس وتطغى على ميولنا وعواطفنا، فيصف في صراحة مخيفة التبشير باللذة الجسدية وأثرها في العلاقات الجنسية وصفاً هو أشد وقعاً من الفن الذي ابتدعه الروائي الايطالي د. هـ. لورانس

كان القصصيون إلى العصر الفكتوري يهتمون كثيراً بصنع قوالب لشخصيات شاذة ثم يصبون ماء الحياة فيها ويحملون القارئ على أن تعلق هذه الشخصيات بذاكرته. وكثيراً ما كانوا يملأون صفحات مملة باردة يصفون فيها نشأة أبطالهم وعوائدهم وطباعهم ونظرتهم إلى الحياة والدين والأخلاق، ثم تنتهي الرواية بترجيح كفة الخير على الشر. وكان اهتمام الروائيين في عصر الملكة فيكتوريا موجهاً إلى تسجيل الحركات والدوافع والفضائل، وكانوا يلقنون البطل أقوالاً يعرب بها عن عقائدهم وأفكارهم ونزعاتهم ودروساً وعظات أخلاقية، أما الفن الروائي الحديث فيختلف عن هذا كله وينحو منحى جديداً، فقد جعل كتابه من أهم مظاهره تقريب الحياة إلى ذهن القارئ بأن يشعر كأنه يعيش في نفس البيئة والجو، كما يهتمون بتسجيل حركات شخصيات رواياتهم وخواطرهم ومشاعرهم الخفية ورسم أطياف أحلامهم وذرات تفكيرهم وارتباطها بنشاط العقل وإبراز العبقريات المدفونة وتقديسها، فالرواية الحديثة حوض بلوري تسبح فيه الرغبات والآمال، والأفراح والأتراح، وتكشف من جوانبه الهواجس والأحلام....

ونحن نشعر لأول وهلة بعد مطالعتنا لقصص شارلس مورجان بهذه الصفات جميعاً، وبقوة جذابة في الأسلوب وفي اللهجة، قوة هادئة منظمة تسيطر على الأعصاب وتبدو من خلالها صفات المؤلف التي لا تمت مطلقاً لا إلى الواقعية ولا إلى التحليلية، بل إلى تجارب ثمينة وإرادة حديدية وفن إبداعي لم يسبقه إليه أحد

بدأ شارلس مورجان [1] حياته في البحرية الانجليزية وعمره سبعة عشر عاماً فطاف ببلاد وموانئ مختلفة، وقد تولد ميله إلى الأدب بتأثير حادث خفي. ولما زار أكسفورد للمرة الأولى راقته حياة الطلبة ودفعته رغبته في إتمام تعليمه وتعلقه وشغفه بالأدب إلى أن يؤثر الالتحاق بالجامعة على الانضمام إلى الأبد في سلك البحرية. غير أن شبوب الحرب العالمية حال دون أن يحقق رغبته فاضطر إلى أن يعود ثانية إلى العسكرية واشترك في الدفاع عن أنفرس إلى أن سقطت في يد الألمان فوقع في الأسر وأرسل إلى أحد المعتقلات العسكرية في هولندا ثم أفرج عنه عقب الهدنة وعاد إلى انجلترا ليلتحق ثانية بجامعة أكسفورد.

كانت أول أعماله الأدبية روايته الأولى « غرفة البنادق » في عام ١٩١٩ وقد تحدث فيها طويلاً عن حياة البحرية، غير أنها قوبلت من جانب الصحف والنقدة بقلة الاكتراث لعدم

(١) بعض تفاصيل حياته استقيتها شخصياً من المؤلف بعد أن علم أني أنقل روايته النافورة إلى العربية

ذيوع اسم مؤلفها ، وفى عام ١٩٢٥ أصدر روايته الثانية « اسمى لا عدّ له » فكان نصيبها نصيب روايته الأولى

أحس مورجان بدبيب الفشل يتطرق الى نفسه ، وانصرف الى الوحدة والمطالعة وخاصة فى كتب الفلسفة والتصوف ، وفى عام ١٩٣٢ ظهر فى الجو الأدبى للمرة الثانية بروايتين : الأولى « صورة فى مرآة » ، والثانيـة « النافورة » يصفهما كلير اليان النجيل الناقد الفرنسى : « بأنهما ثمرة مجهود طويل دقيق ، أشرفت عليه إرادة جبارة تدل على نضوج فى الرأى وقوة فى التفكير » ويقول عنه محرر « النوفيل ليتريز » فى معرض نقده لفن شارلس مورجان : « بأن أهم مميزات عبقريته تحفظه فى التعبير ، ولا يمكن مطلقا اتهامه بالبرود والجفاء لأن الانفعالات المكبوتة قد لا تخلو من الاحساس ، ولهذا فأشخاص قصصه يشعرون ويتألمون ولكنهم يتهامسون دون رفع أصواتهم »

يمتاز أسلوب شارلس مورجان بفصاحة فى التعبير ، وربما كانت روايته «النافورة» مشوبة بشىء من الاسهاب فى الوصف ، ويمكن أن يقال أيضاً بأن الوضع فى روايته الأخرى « صورة فى مرآة » غير متناسق فى مجموعه ، غير أن بعض نكات المؤلف الطريفة تعطينا شيئاً من الطلاقة الى جانب عبوس الموضوع . وقد جاءنا المؤلف أيضاً بأشباح هم أبسط تكويناً من أبطاله ، يعيشون فوق سطح الموضوع لا فى قاعه ؛ مثال هذا : وصفه فى القسم الأول من « النافورة » حياة الضباط الانجليز فى المعتقلات الهولندية ، والآنسة فولاتون العانس فى رواية «صورة فى مرآة» وجعلها تلقى الكلام على عواهنه فى شىء من المزاح الخطر . ومع ذلك فالمعانى التى يأتى بها المؤلف ترتكز على تلك الصراحة التى يصور بها نفسية أبطاله ، وهو لا يكاد يشرح مسألة هامة حتى يترك المجال رحباً لاثنين أو ثلاثة من أبطاله ، فيختفى وراء شخصياتهم ليلفهم آراءه وأفكاره .

فى رواية « صورة فى مرآة » يصف لنا حياة رسام شاب يدعى نيجل فروزيقابل مصادفة صديقة له كان يحبها منذ سنوات ، فحين يلتقى بها بعد هذه الغيبة الطويلة ينبعث الماضى من قلبه فجأة كعالم كان يجهله . حاول أن يهبها حبه فأخفق ، لأن صورتها الأولى التى كان يهيم بعبادتها قد تغيرت بمرور الزمن ، وكانت أيضاً على وشك أن تتزوج من غيره ، فتترك عريسها وتتعلق بالرسام الشاب وتمنحه قوة حبها السابق ، على حين أنه يشفق عليها فقط لأنه يعطف على ذكرى الماضى ويقدسه .

وتعتبر روايته الثانية « النافورة » رداً على هذه النظرية ، فموضوعها هو التفاهم الفكرى بين رجل وامرأة ، والتفاهم الروحى بين رجل ورجل هما فى القصة أخصام ، ولكن الخصب الفكرى والتوافق فى ذلك الأفق العالى من الثقافة يمحو الخصومة ويسمو بهما الى مراتب الآلهة

بطلها لويس اليسون شاب لا يزال فى مقتبل العمر ، ولكن لفرط تعمقه فى الفلسفة والتفكير يبدو أكبر سناً من حقيقته . وعند ما يتكلم بروية يضطر غيره الى الأصغاء ؛ هو مغرم بالتاريخ لا يدرسه لنفسه ولكن للفلسفة فى التاريخ ، يدرس تطور العقل الانسانى المشترك فى العصور المتعاقبة ويتابع ناحية جلية منه ، وهى أن هناك عقلاً واحداً من أقدم عصور التاريخ الى اليوم ، وسواء أكان هذا العقل عقل افلاطون أو ديكارت أو نيوتن فانه العقل الانسانى يحاول أن يخترق الحجب وأن يمزق قناع الغيب

فشارلس مورجان يطبق النظرية الفلسفية الحديثة القائمة على توحيد العقل الأنسانى ويطبق أثر تصوفه فى أخلاق أفراد قصته ، فيقول على لسان أحـــدهم حين يتلو صلاته فى تقوى وخشوع : « عندما كنت طفلا أخذ الله بيدى ، ولما كبرت هربت منه ، وعندما احتجت الى الراحة والسلام بحثت عنه وطفت المدينة بمصباح ، ثم غمرتنى المذلة وانحنيت الى الأرض أبحث عنه فى الأوكار وتحت صفحات الأزهار ، ولكن لم أجد سلاماً ولا راحة ، وصرت كطفل أو كعالم كبير ضل طريقه فلم أعد أعلم عمن أبحث ، فرميت مصباحى ومفاتيحى وبكيت ، ورأيت فجأة نوره يملأ قلبى ، وعدت الى المدينة فاذا النور لا يزال حيث هو ، واذا بى أسرح فى سجن نفسى بينما الدنيا تتابع الطرق على بابى ، رب أعطنى يدك عندما تدعونى اليك »

— ٢ —

نراه يصف الأسرى فى المعتقلات الهولندية فيسهب فى تسجيل حركاتهم وخواطرهم ، عند ما يتألم الطيار الذى اعتاد الجو فلا يستطيع الصبر على الأسر ، يقول للويس اليسون المفكر الغارق فى فلسفته : أتعلم أنى حين أطير أصل الى لحظات يتكشف لى فيها الغيب وأرى ما لا تراه العيون كما ترى أنت بالطبع حين تخلو الى نفسك والى أفكارك ، ثم أعود الى الأرض . . . أعود آدمياً مع الأسف كما تعود أنت بعد خلوتك لتختلط بنا وتتكلم معنا

وعند ما يتقابل لويس اليسون مع جولى ناروتز — وهى سيدة

شابة انجليزية متزوجة من ألماني لا تحبه — يعرف أنها كانت تلميذته القديمة وهو في لندن فتحد الذكريات تنفتح في قلبه شيئاً فشيئاً كما تتفتح الزهرة في أشعة الشمس وتحاوره قائلة :

— أستاذي . . . كيف تراني الآن ؟ هل تغيرت ؟

فيجيبها وهو شارد في تأملاته :

— معاذ الله . . لقد صرت كشبح جميل قام من هذه البحيرة .

فتلذعه بقولها :

— إذا وداعاً للحم والدم !

تتحول صداقة لويس وجولى الى حب ، هو في نظرها وسيلة للبحث عن توازن يتغلب على تقلبات الدهر ، أو كما يصفه المؤلف نفسه : « عند ما يتم امتزاج الرجل بالمرأة وهما في أشد أدوار النشوة ويحاولان أن يعبرا جسر الجسد الى وحدة الروح ، فانهما لابد واصلان الى سخرية ما بعدها سخرية ، وسهما أخطأ الحب من خيال وحرارة وإيمان وابتغاء الخلود بالذرية ، فان الاحساس الجسدي يظل كما هو ، جسمان منفصلان كطائرين يحاولان التلاق خلال (لوح) من زجاج ! »

والخلاصة أن بطلي هذين النزاعين النفسيين متشابهان كل التشابه ، ينجل[1] فريوز في السابعة عشرة من عمره ، ولويس[2] اليسون في الثلاثين ، ولكن كليهما يبدو أكبر سناً من حقيقته ، فنضجت في الحياة تجاربهما . وصورة الرسام الفنان تتشابه تماماً وصورة الضابط الشاب ، فانهما يمتازان بعمق الارادة وانحصار قوة التفكير المحاط بتكتم يخضع المحيط بهما ، ولوعة الذكرى التي تعذب ينجل وشعوره بالألم من مجرد مرور طيف كلير بمخيلته ، هو نفسه شعور اليسون عند ما يلتقي بتلميذته جولى ويحبها . وقد يمتاز اليسون عن زميله بأنه رجل كثير التفكير ، يسبح في آفاق عالية ، فعند ما يؤخذ الى الأسر يفرح كالطفل ويقول ، بأنه سوف يخلو الى مطالعاته وتأملاته

فحياة التأمل ما هي في نظره إلا التاج لآمال الرجال الذين جمعوا وهم في زهرة العمر

أما كلير وجولى فانهما تختلفان نوعاً ، فبطلة « صورة في مرآة » بطيئة في فهم جموح عاطفة الطفل المعجب بها والذي يحبها حباً نادر المثال . لذا تراها مبتعدة عنه بل تكاد تكون سلبية ، على حين أن جولى ضحية تنازع لعوامل مرتبكة ، وهي لذلك كثيرة الاضطراب مبلبلة الفكر ، وقد تجنب المؤلف أن يثير بشأنها مسألة الجنسيات ، فهي انجليزية ولكنها متزوجة من الماني يدعى فون ناروتز ، وشخصية هذا الضابط غريبة حقاً في الرواية ، فالمؤلف يظهره أمامنا وقد عاد من الحرب مشوهاً مريضاً بالربو ، يقاسي نوبات حادة من الألم ، يقول عنه « إنه ترك مرتبة التفكير وصعد الى أعلى من هذا واستقر ، فهاهو يعود الى داره بآلامه التي لا تطاق ، فيحاول أن يصبر كالله جبار »

ولكن البارون — رب القصر — وهو رجل موفور الصحة ، لا يكتم رأيه العملي حيال فون ناروتز فيقول : « إن العالم كمزرعة لا يجب أن يتسامح المرء في الضعيف فيها وإلا قل الأنتاج وحل الخراب ، فالضعيف المريض يجب أن يمحى »

يسمع ناروتز منه هذا ويحاول أن يصبر على الألم ولا يشكو فيقول في إحدى محادثاته : حقاً إن الرجل القوي يتحكم لدرجة ما في الموت والحياة

وهو قد جاء الى القصر بآلامه وانتصر على الموت لأنه يحب زوجته جولى حباً عميقاً خالصاً ولأجلها يريد أن يعيش

ولكنه يعلم بعد هذا أن العلاقة التي تربطه بزوجته أصبحت علاقة المريض بالمرض فهي تحنو عليه مع لويس لأنها محرومة منه ، ولو طالبها بالوفاء له وهي شابة ناضجة الأنوثة ملتهبة العاطفة لكان هذا فوق طاقة البشر ، فيقذف بنفسه في غمرة من المثل الأعلى اليائس ، وأخيراً يصل الى حالة انفصال تام عن الحياة وحالة هدوء واستسلام وتجلد أمام الآلام ويأخذ الجبار في الموت فلا يلبث قليلاً حتى تختفي شخصيته

وقد قصد المؤلف بإظهاره أن يطلعنا على صورة من صور النساك الحديثين الذين يعتبرون أن الحرب ما هي إلا تكفير ديني لخطايا البشرية ، ولو كانت شخصية فون ناروتز غير هذا من الخلق لأصبح الموضوع تافهاً ، ولكن إظهاره بهذه الصورة يدل تماماً على طريقة رسم المؤلف لشخصياته

جميع أبطال شارلس مورجان مثقفون لا يعيشون إلا بأرواحهم ، وبالرغم من تحليله النفسي الدقيق فانه لا يسرف مطلقاً في وصف « تيار الضمير » كما هو الحال في أكثر المؤلفات الانجليزية الحديثة

فأشخاص مورجان يحكمون عقولهم ويدرس بعضهم أخلاق بعض ، وهم ذوو إرادة قوية ، ولا يمكن للغريزة أن تحكمهم حتى في أعمالهم ، يسلكون طريقهم الطبيعي ، ويقفون أحياناً بائسين

١ — بطل « صورة في مرآة »
٢ — « « الثائرة »